الفصل الثانى

دراسات الباقلانى لبيان القرآن وإعجازه

خلاصة الأثر القرآنى وإعجازه

وجه أبو بكر الباقلانى — فى النصف الأخير من القرن الرابع — عنايته إلى دراسات القرآن وبيانه وكان من علماء الأشعرية ، وخطبائهم ، يميل إلى الاعتزال . وقد ورث الأشعرية المعتزلة بعد أن ضعفت سطوتهم ، وشارك الأشعرية فى الدفاع عن العقيدة الإسلامية ، وجدال أصحاب الملل . ونشأ الخطيب الباقلانى بارعاً فى الجدل عالى القدر فى علوم القرآن ، والسنة والكلام . تعرض لكثير من المعارضين والمخالفين ، وقارعهم الحجج . وجادل علماء الروم وظهر عليهم ، مما أثار إعجاب معاصريه به .

وعرف بين مترجميه بكتبه الكلامية فى الرد على الطاعنين والمخالفين[1] . وكثير من تصانيفه يطبعها ذلك الطابع ، وتتجلى فيها شخصيته قوية . وعلى رأسها كتاب « إعجاز القرآن » الذى سار ذكره فى الناس ، وهو يجمع إلى روحه الكلامية ، طابعاً أدبياً ، إذ لم يقتصر فى الإعجاز على دراسته من الوجهة الكلامية بل تعرض للناحية البيانية ، والأسلوبية .

ومن كتبه الأخرى التى تعرضت للإعجاز من تلك الناحية " كتاب الانتصار لنقل القرآن "[2] و « التمهيد » و « الارشاد » ، وأول هذه الكتب أقربها إلى دراسات

(١) التمهيد ص ٢٧ .

(٢) له مختصر بمكتبة بلدية الإسكندرية بعنوان « نكت الانتصار » رقم ٨٢٨ ب .

القرآن والإعجاز خاصة ، والكتابان الثانى والثالث فى الجدل وأصول الدين والعقيدة على مذهب الأشعرية .

وكتاب « إعجاز القرآن » و « الانتصار لنقل القرآن » ، وما كتب فى التمهيد عن القرآن يكون دراسة تامة لبيان القرآن ، وأثره وصلته بالبيان العربى عامة ، إلى جانب النواحى الأخرى الكلامية فى الإعجاز . وتوضح هذه الدراسة موقف الباقلانى من بيان القرآن ، ونظمه ، وصلته بالأدب العربى وصور التعبير المختلفة فيه ، فهو دراسة مقارنة ومنها يتضح منهج محدود المعالم فى معالجة النصوص وكشف أسرارها الجمالية ، وتعليلها . لهذا سنتناول موضوع تلك الدراسة فى الكتب الثلاثة بالترتيب التالى :

أولا : كتاب التمهيد

ثانياً : كتاب الانتصار

ثالثاً : كتاب إعجاز القرآن

قد يكون هذا الترتيب غير دقيق من وجهة النظر التاريخية ، وكان ينبغى الأخذ بها ، ولكن أعوزتنا الأدلة ، فأخذنا بالترتيب السابق لغرضين .

١ — أولها احتمال قرب الترتيب السابق من الترتيب الزمنى .

٢ — ثانيهما التسلسل فى قيمة الموضوع الذى نحن بصدده « إعجاز القرآن » تسلسلا تصاعدياً فى الترتيب السابق ، فالتمهيد كتاب فى العقيدة بوجه عام يدخل إعجاز القرآن فصلا فيه والانتصار خاص بعلوم القرآن ، يبحث تاريخه ، ونقله ، وسوره ، ولغاته ، ومن بينها إعجازه ، ويستغرق جزءاً هاماً فيه . أما إعجاز القرآن فهو دراسة تامة شاملة للمسألة .

الباقلانى ونظرية إعجاز القرآن :

امتازت كتابات الباقلانى ودراساته بالمنهج الكلامى المنظم فقد اهتم بوضع

المقدمات التي تنبئ عن الفكرة ، ثم شرح ما جاء فيها من مسائل ، ومناقشتها من وجوهها المختلفة ، وينتهي إلى تلخيص النتائج التي توصل إليها من مناقشاته . وهذا المنهج متبع بوضوح في « إعجاز القرآن » ، وبدل ترتيبه ، وتناوله للموضوع على امتلاكه ناصية الجدل[١] ويصطنع في كلامه أسلوب الحوار ليتدرج بالسامع في فهم ما يريد ، متابعاً ما قد يوجه إلى الرأي من حجج معارضة فيفندها واحدة واحدة في ترتيب ووضوح . ومما يمتاز به صدق فهمه للنصوص ، وقوة شخصيته . ولكن له معايبه ذلك أنه يفرض آراءه فرضاً — أحياناً — ولا يقبل التسليم بسهولة وإن جافى ما رأى الواقع وحقيقة الأشياء .

وقد مكنه ذلك المنهج العقلي الدقيق في دراساته للبيان القرآني من الخروج بنتائج طريفة وهامة في الوقت نفسه ، وأمكن تكوين رأي ، قد يخرج إلى منهج أو نظرية في النقد مكتملة دقيقة إلى حد ما . فهو لم يعتمد في دراسته على دراسة الألفاظ والعبارات ، بقدر ما اعتمد على الأسلوب والمعاني العامة التي تصورها الألفاظ والعبارات ، مستفيداً مما كتب السابقون ، معتمداً على فكر حر ينقد ويفحص قبل أن يقبل أو يرفض .

وتتلخص نظريته في الإعجاز في خطوات ثلاث :

١ — يبدأ بعرض الفكرة في كتاب التمهيد عرضاً بسيطاً ، فيثبت صحة ما بين أيدينا من نص القرآن وأنه هو حقاً كتاب الله المنزل على نبيه ، وأنه آية محمد صلى الله عليه ومعجزته الخالدة[٢] .

٢ — يثبت عجز العرب عن الإتيان بمثله على رغم تحديه لهم مراراً[٣] .

(١) التمهيد ١٥ .
(٢) التمهيد ١١٤ .
(٣) التمهيد ١١٩ .

٣ - ينتهى من المقدمات السابقة إلى نتيجة عامة هى خلاصة نظريته فى الإعجاز التى عرضها فى كتبه فى صور مختلفة وهى « خروج نظم القرآن عن سائر كلام العرب ونظومهم[١] ، ومما يحتج به على ذلك قوله : « إن قدر ما يقتضيه التقدم والحذق فى الصناعة قدر معروف لا يخرق العادة مثله ، ولا يعجز أهل الصناعة ، ولا المتقدمون فيها عنه ، مع التحدى والتقريع بالعجز والقصور لأن العادة جارية بجمع الدواعى والهمم على بلوغ منزلة الحاذق المتقدم فى الصناعة ، وما أتى به النبى صلى الله عليه من القرآن قد خرج عن حد ما يكتسب بالحذق »[٢]. ويقول إن عجز القوم عن معارضته دليل خروجه على نمط كلامهم[٣] .

وإعجاز القرآن فى نظمه وبيانه منصب عنده على القرآن كله كوحدة ، وجملة لا تفصيلا ، كنص كامل له ميزاته وصفاته التى تميزه عن أقوال العرب وفنون كلامهم . لهذا نراه يعارض فكرة الإعجاز البلاغى الذى يتعرض للتحليل الجزئى للعبارة ، والبحث فيها عن ضروب البيان والبديع ، ومجاز القول ، ثم لا يأخذ بالقول بفصاحة الألفاظ وحدها . يقول « ليس الإعجاز فى نفس الحروف ، وإنما هو فى نظمها وإحكام رصفها . وليس رصفها أكثر من وجودها متقدمة أو متأخرة ، ومترتبة فى الوجود وليس لها نظم سواها . وهو كتتابع الحركات ، ووجود بعضها قبل بعض ، ووجود بعضها بعد بعض »[٤] .

فيأخذ بفكرة النظم التى نادى بها الخطابى ، وقال إن ترتيب الألفاظ فى العبارة خاضع لترتيب معانيها فى النفس[٥] .

ويرى أن القرآن يختلف فى هذا عن سائر الكتب السماوية كالإنجيل

(١) نفس المصدر ١٢٠ .
(٢) التمهيد ٢٠ .
(٣) نفس المصدر ٤٤ .
(٤) التمهيد ١٢٦ .
(٥) راجع ص ٢٥٦ ٢٥٧ فى هذا البحث .

والتوراة . ويتعلق بتوكيد إعجاز القرآن فرق ما بين أسلوبه وأساليب معارضيه من العرب الذين حاولوا تقليده ، فلم يكن محصولهم غير سفيه القول وتخيف الكلام .

ثم يشير إلى وجوه الإعجاز الأخرى كالإخبار بالغيوب ، وما جاء فيه من قصص الأولين وسير الماضين مع أن النبي كان أمياً .

وبعد فهذا هو ملخص فكرة الإعجاز عنده بشكل عام وسنتتبعها في كتبه الثلاث وخاصة في كتابي « الانتصار » و « إعجاز القرآن » .

وتمتاز دراسة الباقلاني للإعجاز في كتاب « الانتصار » بأنها جاءت ضمن دراسته العامة للقرآن في تاريخه وقراءاته . ويبدأ الكتاب ببحث كلمة قرآن . ثم ينتقل إلى أقسام القرآن فيبحث في معنى كلمة سورة ، وآية ، ويتعرض فيما يتعرض له لمقارنة الناس بين الآية وبيت الشعر ، ومقابلتهم القصيدة بالسورة [١] ويرفض هذه المقابلة ، لأنه يرى أن لا صلة بين الآية وبيت الشعر ، أو بين القصيدة والسورة . وهذا الرأي جزء من نظريته العامة التي لا يرى فيها ثمة تشابهاً بين القرآن وسائر كلام العرب ، ونظوم كلامهم . ويتدرج في أبواب الكتاب باباً باباً حتى يصل إلى باب « ذكر مطاعنهم على القرآن » ، ويتولى فيه الرد بالتفصيل على الآيات التي طعن فيها من الناحية اللغوية معتمداً فيما أورده على إثبات صحة الأسلوب القرآني بمقابلته بأساليب العرب الصحيحة البليغة في الشعر والنثر . وتكلم في هذا الباب أيضاً عن الحذف والتكرار والزيادة ، والمشكل من لغات القرآن . مما سبق الكلام فيه وخاصة في « مشكل القرآن » لابن قتيبة .

وفي الحذف مثلا يجمع ما قال الأولون بين منكر ومجيز . ولا تفوته الإشارة إلى حكمة أسلوب القرآن في الحذف والزيادة ، والتكرار وغيرها من طرق التعبير [٢] .

(١) نكت الانتصار ١ ـ ٣ .
(٢) نفس المصدر ٦١ ـ ٦٤ .

وكاختلاف صيغ المعانى ، وخروج الاستفهام إلى القلب ، والإنكار . والتوكيد . ثم ينفى التعارض المزعوم فى معانى بعض الآيات مبيناً الوجه الصحيح فيها[١] .

ويتكلم فى ابتداءات السور ، فيناقش ما جاء فيها من الآراء ويرفض القول بأنها غير مفهومة ، وأنها رموز ، أو أصوات . وهو رأى لا يتمشى مع الإعجاز البيانى . ولا مع وصفه تعالى للقرآن بأنه بلسان عربى مبين [٢] .

ويعقد باباً فى الدلالة على أن القرآن معجزة للنبى يتكلم فيه عن وجوه الإعجاز الثلاثة التى سبقت الإشارة إليها [٣] .

ويفرد مكاناً طيباً للكلام عن نظمه المعجز ، فيؤكد ما سبق القول به من إعجاز القرآن بنصه الكامل . ويفند آراء من قالوا بامكان معرفة إعجازه عن طريق تحليل آياته على ضوء علوم البلاغة ، أو بذكر فصاحة ألفاظه .

ويعقد باباً مستقلا فى « الدلالة على صحة مفارقة القرآن لكلام العرب » ، وهو لب نظريته فى الإعجاز . وليصل إلى تحقيق هذه النظرية يبحث فى كلا جانبيها ، فيتكلم عن كلام العرب (الفنى) أو البيان عامة . ثم عن القرآن ، وينتهى إلى الخواص التى فى البيان العربى ، فى نظمه وتأليفه ، ولا تتمثل فى القرآن . والقرآن لهذا خارج عنها .

ويعقد باباً فى « البيان » [٤] يبدؤه بالكلام عن طرقه . ووسائله ؛ عن البيان بالقلم واللسان . وأنه أشرف البيان . ثم يتعرض لتعريفات البلاغة التقليدية بصورة تذكرنا بكلام (الجاحظ والرمانى والعسكرى فى الصناعتين . وينقض بعضها على مثال ما فعل الرمانى . إذ يرى مثلا أنه لا يجوز أن تحد البلاغة بأنها

(١) نكت الانتصار ٦٨ - ٧٨ .
(٢) نفس المصدر ٩٢ .
(٣) نكت الانتصار ١١٣ .
(٤) نكت الانتصار - ١٣٩ .

كلام مفيد . لأن ذلك يساوى بين باقل وحبان وائل . ولا يجوز أن تحد بأنها تحقيق اللفظ على المعنى . لأن ذلك يصح فى الطويل من الكلام المستهجن الغث [١] .

ويتناول أبواب البلاغة ، فيتكلم عن الإيجاز . والإطالة ، ويضع شرطاً فى المقارنة بين فنون التعبير فى هذين اللونين ، فيرى وجوب وحدة الموضوع حتى يمكن الحكم على أى الأسلوبين . الإطناب أم الإيجاز أوفى بالغرض ، وينتهى إلى أن لكل من الأسلوبين فوائده ومناسباته .

ويعقد فصلا فى فن من تلك الفنون لم نسمع به عند من تعرضنا لهم من قبل ، وهو :

البراعة :

يحده بقوله « فأما وصف الكلام بأنه براعة معناه أنه حذقت طريقته ، وأجيد نظمه . وقد يوصف بذلك كل مجيد قول أو صناعة . فيجوز أن يوصف القرآن بالبراعة على هذا المعنى . والمراد أنه نظم يخرج عن إمكان كل الناطقين لا على معنى أنه تجويد كلام هو على معنى كلام العرب » .

ويعقد مقارنة بين فنون البيان ـ التعبير فى القرآن ، وفى كلام العرب ، وينتهى إلى نتيجة يقصدها . وهى أن فنون البيان فى القرآن أبلغ منها فى كلام العرب أجمع . فالاستعارة فى القرآن أبلغ . والتشبيهات فى القرآن أبلغ . والتجانس فى القرآن أبلغ . . . الخ .

ونلاحظ تأثره هنا بما سبق أن قاله الرمانى فى هذا الموضوع . بل إن تعريفه للاستعارة هو عين تعريف الرمانى . وكلامه فى التجانس . لا يكاد يخرج عن نص عبارته [٢] وكلامه فى المبالغة كذلك لا يخرج عن الأقسام الستة التى

(١) نفس المصدر ١٤٢ .
(٢) نكت الانتصار ١٤٢ ـ ١٤٣ .

عرفناها فى كتاب النكت ، وكذلك محاولاته فى التفضيل بين فنون البلاغة فى القرآن وفى كلام العرب هى موضوع كتاب الرمانى .

ويأخذ بما جاء فى النكت عن التلاؤم والتصريف . والفواصل . ويرى أيضاً أن الفواصل فى القرآن أفضل من السجع ثم يذكر قسميها اللذين ذكرهما الرمانى أعنى الفواصل المتجانسة الحروف والمتقاربة الحروف [١] .

ويتعرض لما جاء عن مسيلمة من كلام يقلد به القرآن على مثال ما فعل الخطابى [٢] .

ثم يتكلم عن موسيقى الوزن فى نظم القرآن . وهو متابعة لرأيه فى الفواصل ، والمقارنة بينها وبين السجع ، فيرى أن لا شبهة بين أوزان القرآن وفواصله ، وبين أوزان العرب وأسجاعهم وفواصلهم ثم يعرض على بساط البحث أوزان الكلام [٣] فيقسم الكلام من حيث الوزن إلى أربعة أقسام :

١ - النثر (وهو المرسل)

٢ - مقفى غير موزون .

٣ - موزون غير مقفى ، ومنه السجع والخطب .

٤ - والنظم المقفى الموزون وهو الشعر .

ويتعرض لنشأة تلك الفنون وتطورها عند العرب فيقول :

« ... وأن أسرعها على النفس النثر ، ويليه الموزون غير المقفى ، ويلى ذلك المقفى الموزون على روى واحد ، وهو الشعر . والعرب لم تتكلم أولا إلا بالمنثور بلا وزن ولا تقفية لأغراضها فى ذلك وتفاهمها ، ثم اتفق فى أواخر كلامها مخارج حروف استحليت ، وألفتها الأسماع كما ألفت بعض دوران النواعير ،

(١) نفس المصدر ١٤٣ - ١٤٥ ، وراجع كتاب النكت فى نفس الأبواب .

(٢) راجع بيان إعجاز القرآن للخطابى ، هذا البحث ص ٢٥١ .

(٣) نكت الانتصار ١٤٠ - ١٤٩

والدواليب عن غير قصد من الحيوان والجماد إلى ذلك ، فلما كثر فى كلامهم ذلك فطنوا له وتنبهوا عليه ثم اتفق أن وقع لهم أزواجاً ، وأفراداً على وجه يستغرق المعنى المقصود فغيروه من حال إلى حال فصار متألفاً التأليف الذى سموه سجعاً ، وبرز التأليف الذى سموه خطبة ، فصار السجع والخطابة ديدنهم ، ثم أنهم فطنوا للتأليف المتفق أواخره فصار وزناً واحداً ، فاستحلوه فصار شعراً بطويله وقصيره ، ورجزه وقصيده ، فإذا كانوا قادرين على ذلك ابتداء من غير مطالبة ثم عجزوا عن الإتيان بمثل سورة مفتراة دل على أن القرآن ليس من وزن كلامهم ولا من نجاره » .

ورأى الباقلانى هنا لا يقبل ببساطة ، ويحتاج إلى مناقشة لأنه قال :

١ - إن الشعر ظهر عند العرب من غير قصد إليه ، فسلب منه الجانب الفنى [١] .

٢ - إن الشعر متأخر عن الخطابة والنثر الفنى ، وهذه قضية كثر فيها القول [٢] ، أما الشعر والسجع وظهورهما فى الكلام العربى مصادفة ، فمعناه أن العرب لم يشعروا كما يشعر الناس بالإحساس الفنى المتدفق فى أعماق النفس عند ما تثير الإنسان تجربة من تجارب الحياة ، أو يعصف بوجدانه عاصف مثير أو يطرقه طارق خفيف ، فيزيد فى الأولى ويرعد ، وتتردد فى صدره أنغام صاخبة متزنة ، ويطرب فى الثانية وتتجاوب فى صدره نغمات عذبة ، هادئة ، فيخرج الكلام فى الأولى قوى الوزن يهدر هدير الموج ، تتجاوب مع وزنه ألفاظه ومعانيه ، ويترنم فى الثانية ترنم الحمامة ، فى وزن رقيق .

وهذه التجربة الفنية التى يعانيها كل فنان ويتفاوت الناس فى طرق التعبير عنها

(١) يذكر الباقلانى فى موضع آخر من كتاب « إعجاز القرآن » آراء مختلفة فى الشعر من هذه الناحية ، الأول أنه اتفاق فى الأصل غير مقصود إليه وهو رأيه هنا ، والثانى أنهم قد تواضعوا عليه ، والثالث أن الله تعالى أوقفهم عليه » (ص ٦٥ - ٦٦) .

(٢) راجع فى هذا مثلا كتاب الشعر الجاهلى ، أو فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين .

فى حاجة إلى الوزن ، ليكمل التعبير ويتم ، ولأن النغم منبعث مع المعانى فى النفس جنباً إلى جنب ، فلا يمكن أن تجىء الأوزان مصادفة ، أو تصدر عن الإنسان كما يصدر النغم عن السواقى والنواعير ، ولا يقصد إليها الحيوان أو الجماد . لأن للإنسان إحساسه الفنى ، الذى ينفعل فيدفعه إلى التعبير الفنى ، كما يختلف عنهما بالوجدان الذى يتأثر بالجمال ، ويتذوقه .

أما تأخر الشعر عن الخطابة ، فلا تؤيده طبيعة الأشياء ، وتاريخ الأمم ، فلم يثبت مما جاء عن العرب أن الشعر كان متأخراً ، قال ابن رشيق « . . وقالوا كان الشاعر فى مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب لحاجتهم إلى الشعر فى تخليد المآثر وشدة العارضة ، وحماية العشيرة »[١] والأمم البادية أحوج إلى الشعر منها للخطابة والنثر الفنى ، لأن عاطفتها فى أول الأمر تكون أكثر من عقلها ، أو أكثر سيطرة من عقلها .

ويرى «لايل»[٢] أن الشعر لم يستو للعرب فى شكل قصيدة إلا بعد أن قضوا زمناً طويلا فى قول الشعر ، وأن تلك المطولات التى أثرت عن امرىء القيس وأمثاله من الجاهليين القدماء إنما كانت نتيجة مران طويل ، ودربة فى صناعة الشعر .

وزعم الباقلانى بأن النثر أسرع على النفس ، قول يعوزه الدقة ، لأنه قد يكون أسرع إلى الفهم والعقل ، وليس أسرع إلى العاطفة والوجدان . وعلى أية حال فهذه الدعوى تحتاج إلى مزيد من القول نحن فى حل منه فى هذا المكان .

والذى أثار ما قلناه متابعة الباقلانى لأوزان الكلام تمهيداً للنظر فى وزن القرآن ، والقرآن يلتزم ضرباً ، أو ضروباً من الوزن ، وتجرى فيه موسيقى كموسيقى الشعر ، والسجع ، يتكون من أنغام خفية ناتجة من تراصف الكلمات

(١) العمدة فى الشعر ١ : ٥٥
(٢) راجع Ancient Arabian Poetry, Ch. Lyall, p. XXXVII

بعضها إلى بعض ، فى تردد منتظم ، وترتيب ينتهى بفاصلة تكون مع حروف الألفاظ أصواتاً ، هى الموسيقى الظاهرية « الصائتة » ، وموقع الفاصلة فى القرآن موقع السجعة فى آخر الفقرة فى السجع ، أو القافية فى آخر البيت . ولها كما لهما دور فى الموسيقى الخفية أو « الصامتة » ، وبهذا تتم مجموعة من النغمات الصائتة والصامتة فى الآية . ويتوقف عندها السيل الموسيقى بنوعيه ، ثم يبدأ بعد وقفة سيل آخر ، وهكذا .

أما ما قاله الرمانى فى خلو السجع من الفائدة ، ومتابعة الباقلانى له فقول لا يعتد به لأن الفاصلة أو السجعة فى القرآن تؤدى دورها تماماً كما تؤديه فى غيره من الكلام الفنى الجميل . ولا أرى سبباً فى الفصل بين الفاصلة والسجعة . كما لا نأخذ بما ردده الأشاعرة، والرمانى فى ذلك . اعتماداً على أن السجع يقدم فيه اللفظ على المعنى . والقرآن لا تخضع فيه المعانى للفاصلة بل تقع موقعها الصحيح من الكلام . والناس مع هذا متفاوتون فى القدرة الفنية . يتفاوت لذلك قولهم وسجعهم .

بين وزن القرآن ووزن الشعر :

ينفى الباقلانى الصلة بين وزن القرآن ووزن الشعر كما نفى الصلة بين سجع الناس وفواصله . وينفى تلك المشابهة على أية صورة ، المشابهة بين السورة والقصيدة والآية وبيت الشعر ، ثم ما قيل من مجىء بعض الآيات على وزن الشعر [1] : ويقرر فى هذا المقام بعض الحقائق التى تتصل بنظرية الشعر ، يحسن الوقوف عندها لأهميتها فى دراسات الشعر العربى . وأول هذه الحقائق ضرورة القافية وأهميتها فى بناء القصيدة .

ثانياً : وزن الشعر ، وهو محدود بحدود معينة فى الأعاريض المعروفة التى

(١) نكت الانتصار ١٤٩ وراجع ما كتبه الجاحظ فى البيان والتبيين .

لا تخرج عنها قصيدة عربية وليس من هذا ما جاء فى القرآن عفواً على وزن الشعر . إذ الثابت فى الأذهان أن قصيدة الشعر تتفق كلها على وزن واحد وروى مشترك من مطلعها إلى ختامها .

ثالثاً : بنية القصيدة ، ولا يسمى شعراً كل ما يقال ، أو يقع عفواً على ألسنة الناس ، أو العامة ، أو يجيء فى الخطاب غير مقصود إليه ، فالشعر لا يقع إلا من شاعر (١) .

رابعاً : أقل قدر يمكن أن يسمى شعراً هو ما زاد على بيتين على وزن واحد وروى مشترك ، ولا يسمى قصيدة إلا ما تجاوز ذلك المقدار .

خامساً : وزن الرجز أسهل أوزان الشعر . وهو كثير الوقوع فى الكلام ، لذلك لم يعتبره بعضهم من أوزان الشعر .

سادساً : وبذلك يكون حد الشعر عنده هو « أن يكون الكلام موزوناً مقفى لا يقع مثله إلا من عالم به قاصد إلى وزنه وتقفيته » (٢) .

ومحاولته هنا دراسة وزن الشعر ونظريته بصفة عامة على الوجه الذى تبينا بمقارنة وزن القرآن ، متممة لما جاء عن السابقين كالفراء والجاحظ ، والتحليل لنصوص القرآن التى زعموا أنها شعر ، وتفنيد لأقوال المدعين ، ووضع للحدود التى توضح السبيل وتفصل بين القرآن والشعر ، على أساس فهم لنظريه الشعر ودوره . وهو بين هذا وذاك يتعرض لنكت ودقائق كثيرة . لولا ضيق المقام لأوردنا منها المزيد .

ويرد على بعض المعتزلة القائلين بالصرفة ، وإنكار إعجاز القرآن بنظمه وتأليفه (٣) .

---

(١) نفس المصدر ١٥٢ .

(٢) نكت الانتصار ١٥٣ ، وراجع كتاب «نقد الشعر لقدامة وتعريفه للشعر» وفيه نجد الباقلانى مما يزيد على حده بما يوفى بالغرض .

(٣) نكت الانتصار ١٥٨ ١٦١ .

كتاب إعجاز القرآن :

وهو الدراسة الناضجة لآراء الباقلانى مجتمعة فى نظم القرآن ، وآراؤه هنا هى آراؤه فى كتابيه السابقين ، ونظريته التى جاهد لها بينة ناضجة هنا فى هذا الكتاب الذى رتب البحث فيه ترتيباً منطقياً علمياً بدأ بتلخيص مجمل لنظرية الإعجاز كما يراها ، ثم تناولها بالشرح والتفصيل أثناء الكتاب ، ورد على الاعتراضات ، وفند حجج المعارضين والمخالفين فى فصول الكتاب ، ثم انتهى فى آخره ـ ككل بحث علمى ـ إلى تلخيص جامع للنتائج التى توصل إليها .

ونظريته فى الإعجاز تتلخص فى الوجوه الثلاثة التى سبق ذكرها[1] وتنتهى بالنظم فيقول « . . . والوجه الثالث أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه فى البلاغة على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظم جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص ويتميز فى فصوله عن أساليب الكلام المعتاد[2] » .

ذكر النظم القرآنى بوجه عام وهو تأليف الألفاظ بعضها إلى بعض ، وذكر أسلوب القرآن أو طرق التعبير فيه ، وقال إنه مختلف فى كليهما عن الكلام المعتاد . ثم بدأ فى بحث فنون القول عند العرب فقسم كلامهم (الفنى) إلى وجوه خمسة[3] :

١ الشعر

٢ الكلام الموزون غير المقفى

٣ الكلام المعدل المسجع

(١) راجع ص ٣٦ ـ ٣٨ إعجاز القرآن

(٢) إعجاز القرآن ٣٨

(٣) ص ٣٨

٤ ـ القول المعدل الموزون غير المسجع

٥ ـ المرسل .

جعل المسجع هنا قسما من أقسام القول . لأنه ربما لاحظ نقص تقسيمه الأول في كتاب الانتصار[١] إذ لم يفرد للسجع قسماً . بل جعله ضمن الكلام الموزون غير المقفى مع الخطب[٢] . وقد يكون ما وقع في الأول تحريفاً أو سهواً من المختصر . إذ المعقول أن يجعل السجع من باب المقفى غير الموزون . وقد سمى الأنواع الثلاثة الأخرى دون المرسل أو النثر نظماً . فالقسم الثاني من أقسامه النظم (المرسل) وهو المقفى غير الموزون . ولعله أراد المسجع . ومنه الخطب والنظم الموزون غير المقفى . والنظم المقفى الموزون وهو الشعر .

وتقسيمه هنا أدق على أية حال لأنه خرج بالسجع عن النثر المرسل . وعن الكلام الموزون غير المقفى . والمقفى غير الموزون . ووضعه بين المعدل الموزون غير المقفى . والمعدل الموزون غير المسجع يقصد إلى جعل الكلام المعدل المسجع يجرى مجرى الموزون على وزن ما . ولكنه غير مطرد اطراد المقفى الموزون . أو الموزون غير المقفى . خارج كذلك عن نوع من الكلام الفنى لا يشبه السجع ولكن قد يقع فيه منه . ولعل فيه تقع الخطب[٣] والمقالات الفنية . ثم المرسل . وهو المطلق الخالي من كل وزن وقافية .

ولا ينسى كذلك أن يشير إلى الصنعة في الأقسام الأربعة الأولى المتتالية فيسمى السجع « الكلام المعدل المسجع » . والنوع الرابع « المعدل الموزون غير المسجع » . ثم يشير في مقدمة كلامه إلى أن القرآن يتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد . وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم

(١ ، ٢) نكت الانتصار ٩٩ .

(٣) يضم الخطب والأسجاع معاً في موضع [illegible] (ص ٥٠) [illegible] الموزون غير المقفى [illegible] في الانتصار .

تنقسم إلى. . . ». ويجعل المرسل من الكلام الذى « لا يتعمل ولا يتصنع له ». ويرى أن القرآن جميعه خارج عن تلك الأقسام ، وأنه فى جملته متميز بطابع خاص حاصل فيه جميعه « . . . فهذا إذا تأمله المتأمل تبين - بخروجه عن خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل فى جمعه »[1] .

ثم يحتج لتلك الخصوصية ولإعجاز القرآن بخروجه عنها فيرى أنه مختص بأمور أو معان عشرة هى :

١ — المعنى السابق فى الإعجاز (وهو مجمل رأيه) .

٢ — أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة . والتصرف البديع ، والمعانى اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة . والتناسب فى البلاغة والتشابه فى البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر . وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبينه بعد من الاختلال . . .[2].

٣ — « أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على مايتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة . . » . . ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف حسب اختلاف هذه الأمور » .

٤ أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً فى الفصل والوصل ، والعلو والنزول ، والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظام ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع . ألا ترى أن كثيراً من الشعراء قد وصف بالتقص عند التنقل من معنى إلى غيره والخروج من باب إلى سواه . . على أن القرآن

(١) إعجاز القرآن ٣٩ .
(٢) نفس المصدر ٣٩ .

على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب ، والمتنافر فى الأفراد إلى حد الآحاد . وهذا أمر عجيب تتبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف » .

٥ ـ وهو أن نظم القرآن وقع موقعاً فى البلاغة يخرج عن عادة كلام الإنس والجن فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا . . . »

٦ ـ « وهو أن الذى ينقسم إليه الخطاب من البسط والاقتصار والجمع ، والتفريق ، والاستعارة ، والتصريح والتجوز ، والتحقيق ، ونحو ذلك من الوجوه التى توجد فى كلامهم المعتاد بينهم فى الفصاحة والإبداع والبلاغة » .

٧ ـ وهو أن المعانى التى تتضمن فى أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات فى أصل الدين والرد على الملحدين على تلك الألفاظ البديعة ، وموافقة بعضها بعضاً فى اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر » . فاقتدار القرآن على ابتكار الألفاظ للمعانى الجديدة مع مراعاة التصرف دون إخلال بالبلاغة ، أو إيهام بالغرابة أمر يختص به وحده .

٨ ـ « وهو أن الكلام يبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة فى تضاعيف كلام ، أو تقذف ما بين شعر فتأخذه الأسماع ، وتتشوف إليه النفوس ، وترى وجه رونقه بادياً غامراً سائر ما تقرن به كالدرة التى ترى فى سلك الخرز ، وكالياقوتة فى واسطة العقد » .

وصحيح أن لفظ القرآن مختار وفصيح لكنه لا يخرج عن الألفاظ العامة التى تداولها الشعر وسائر الكلام العربى ، وأن الذى توهمه الباقلانى خاصية جديدة فى لفظ القرآن إنما هى عامل نفسى يرجع إلى كثرة ترديد المسلمين للقرآن حتى ملك أفئدتهم واستقر فى نفوسهم فى مكان جليل ، وتركزت معانيه السامية حول ألفاظه حتى إذا استعمل الشاعر أو الناثر اللفظ القرآنى ، استدعى اللفظ

المعنى القرآنى إلى جانب معناه فى عبارة الشاعر أو الأديب . فيبرز كلامه بذلك العامل ، لا لخاصية راكزة فى اللفظ .

٩ — « وهو أن الحروف التى بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً وعدد السور التى افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة ، وجملة ما ذكر من هذه الحروف فى أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة ، وهو أربعة عشر حرفاً ليدل بالمذكور على غيره ، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التى ينتظمون بها كلامهم ، والذى تنقسم إليه هذه الحروف على ما قسمه أهل العربية وبنوا عليه وجوهها أقسام نحن ذاكروها » .

١٠ — « وهو أنه سهل سبيله ، فهو خارج عن الوحشى المستكره ، والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة ، وجعله قريباً إلى الأفهام ، يبادر معناه لفظه إلى القلب ، ويسابق المغزى منه العبارة إلى النفس ، وهو مع ذلك ممتنع الطلب عسير المتناول » . وقد علمت أن كلام فصحائهم ، وشعر بلغائهم لا ينفك من تصرف فى غريب مستنكر ، أو وحشى مستكره ، ومعان مستبعدة ، ثم عدولهم إلى كلام مبتذل وضيع لا يوجد دونه فى الرتبة ، ثم تحولهم إلى كلام معتدل بين الأمرين متصرف بين المنزلتين » .

وبعد أن لخص وجوه الإعجاز البيانى فى تلك الأقسام العشرة ، تناولها تفصيلا ، ولكنه لم يلتزم هذا النسق ، بل جمع من كل جزء جزءاً ، وتكلم عنها فى مناسبات متفرقة .

ومما أعاد القول فيه هنا مسألة نظم القرآن وصلته بنظوم كلام العرب . وفرق بينه وبين وزن الشعر والسجع ، ويعود مرة أخرى فيأخذ بما قال الرمانى فى الفرق بين الفاصلة ، أو نظام الفواصل فى القرآن ، وبين السجع[1] .

(١) وكلامه هنا هو عود إلى رأيه الذى قدمناه فى كتاب الانتصار — راجع ص ٣٧٣ ويتكلم عن الفرق بين السجع والفواصل ويردد مرة أخرى تعليل ذلك « لأن السجع من الكلام =

ويزيد هنا فيرى أن للسجع أوزاناً خاصة به . « . . وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط متى أخل به المتكلم أوقع الخلل فى كلامه ونسب إلى الخروج عن الفصاحة كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً وكان شعره مرذولا ، وربما أخرجه عن كونه شعراً . وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعاً متقارب الفواصل متدانى المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طولها عليه ، وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، وهذا فى السجع غير مرضى ولا محمود »[١].

وينتهى إلى أن « الحروف التى وقعت فى الفواصل متناسبة فى موقع النظائر التى تقع فى الأسجاع ، لا يخرجها عن حدها ولا يدخلها فى باب السجع » .

ويعود مرة أخرى هنا – كما فعل فى باب البيان فى الانتصار – إلى تفصيل وجوه البلاغة والبديع . وبعد مقارنة شبيهة بما حدث فى « الانتصار » ينتهى إلى أن القرآن يجمع كل فنون البديع فى أرفع درجاتها . ولكن لا يكفى هذا البديع وحده للكشف عن حقيقة إعجاز القرآن . وعجائب نظمه فيقول « أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذى ادعوه فى الشعر ووصفوه فيه »[٢].

ويرى أنه ينبغى للإنسان كى يدرك أسرار الإعجاز أن يكون بصيراً باللغة خبيراً بفنون القول ، متمكناً ، نقادة يجيد التمييز بين الأساليب ، ولتلك الخبرة أصولها من الإلمام الواسع بالعربية ، والشعر مع الموهبة الخاصة الفطنة .

، يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى » (ارجع إلى نكت الرمانى ضمن الفواصل) .

(١) إعجاز القرآن – ٦١ .

(٢) إعجاز القرآن ص ٩٧ .

ثم يبدأ دراسة مفصلة للنقد على أساس المنهج الذى رسمه فى ذهنه ، والذى يمكن على أساسه الاهتداء إلى سر إعجاز القرآن فى نظمه وبيانه . هذا المنهج الذى لم يقتصر على حدود البديع ، والبلاغة التى خاض فيها علماء عصره ومن سبقوهم . وجاء هو ليضيف جديداً ، أو ليؤلف بين آراء السابقين ، بين منهج البلاغيين فى الإعجاز . ومنهج الخطابى فى النظم ثم يضيف هو شيئاً آخر فيتم بذلك « الأثر القرآنى فى النقد »[1] .

المنهج النقدى كما عرضه الباقلانى فى كتاب إعجاز القرآن :

يبدأ المنهج من حيث الشكل بالتحليل الدقيق لبعض الآثار الفنية الرائعة عند العرب ، وتتمثل فى مجموعة من خطب النبى ، والصحابة ، وفصحاء العرب ، وبلغائهم ، فيتتبعها محللا مقارناً بينها وبين ما جاء فى القرآن من البيان ، ثم يتناول أروع ما اتفق عليه من آثارهم الشعرية . فيختار معلقة امرىء القيس ، ثم يعطف على الشعر الحديث — فى عصره — فيختار أمير شعرائه ، وهو الذى يمثل « طريقة العرب[2] » عند نقاد عصره ، فيختار من شعره ، أروع قصائده ، ويحللها . وينتهى من تلك الدراسة النقدية الخالصة إلى مجموعة من الأصول الفنية فى النقد ، ويقابلها بدراسة أخرى على ذلك النحو لنصوص من القرآن فيحلل سوراً يختارها ، ثم يبين فضل النظم القرآنى ، وفنون التعبير فيه بشكل عام لا يرتكز على مجرد الأسلوب ، أو العبارة ، ولا يهتم بالاستعارة والتشبيه ، أو التقديم والتأخير ، أو الإيجاز أو الإطناب ، إلى آخر ضروب المجاز التى كثر قول المتقدمين فيها . وإنما ينصب اهتمامه على التعبير القرآنى فى السورة عامة ،

(١) نسبة إلى ظهوره فى الدراسات القرآنية ونموه فى ظلها .

(٢) وهو مذهب ظهر بوضوح عند جماعة من النقاد فى القرن الرابع مثل الآمدى ، والقاضى الجرجانى .

واطراد المعانى فيها ، وتآلفها ، ومدى دلالة النظم عليها فى صوره المختلفة ، كالتآلف بين الألفاظ ، والترابط فى الصور البيانية ، والمعانى المعبر عنها ، والموسيقى ، الخافتة ، والصائتة ، الناتجة من انسياب الألفاظ فى سهولة ويسر ، ومن إيقاع الفواصل إيقاعاً يساعد على فهم المعانى ، ومسايرتها قوة ولينا ، مما سنعرض له تفصيلا .

الوحدة الفنية ، والموضوع :

من أهم ما يسترعى النظر فى منهج الباقلانى لدراسة إعجاز القرآن اعتبار الوحدة الفنية ، التى تتضمن موضوعاً واحداً ، ويظهر هذا من تناوله بالتحليل سورة بتمامها ، يتدرج فيها ، ليظهر ما تنطوى عليه من خصائص فى النظم لا تقتصر على مجرد روعة استعارة أو بلاغة تشبيه يرد فى آية أو عبارة قصيرة ، وإنما إعجازه منصب عليه جملة لا تفصيلا .

فالسورة — لا الآية أصغر وحدة فنية ، موضوعية فى القرآن يمكن الحكم عليها بإعجاز النظم ، أو بالبلاغة ، وروعة البيان ، لأنها يمكن أن تتوفر لها شروط الإعجاز السليمة .

وبذلك يكون قد خرج عن منهج السابقين وآرائهم ودراساتهم ، إذ اعتبروا الآية ، أو العبارة أو بيت الشعر ، أو شطره ، أساساً لبحوثهم النقدية والبلاغية ، ومن ثم لأحكامهم فى بيان القرآن ، مما خرج بتلك البحوث عن دائرة النقد الشامل العام إلى نقد موضوعى جزئى ، وأوقعهم فى أسماء ومسميات ، أطلقوا عليها أحياناً اسم بديع ، وأحياناً اسم بلاغة . ولا تتعدى العبارة ، إلى ما وراءها .

وكان طبيعيًّا على من حصروا أنفسهم فى تلك الحدود الضيقة أن يجدوا لأنفسهم متنفساً وسلوى يشغلون بها أذهانهم . ويملأون كتبهم . فلم يجدوا غير اختراع الأسماء وتفريع الفنون . حتى باتت تربو وتتضخم إلى أن أربت على

المائة وبكثير [١] . ولم يجد هذا التكاثر على النقد الفنى الصحيح شيئاً ذا بال ، بل على العكس جففت ماءه وذهبت بروائه .

وقد أدرك الباقلانى خطأ القدماء ، فردد القول بأن قضية الإعجاز لاتتكشف عن طريق البديع والبلاغة وحدهما ، كما حاول الرمانى ، وتبعه أبو هلال العسكرى بل أدار ناظريه ليبحث عن سر الإعجاز حقيقة ، فابتدأ الطريق من أوله ، بعد أن شك فى قدرة البديع على هدايته ، فوجد أن « الحديث التام لا تتصل حكايته فى أقل من كلمات سورة قصيرة »[٢] .

تطبيق المنهج على الشعر :

وقبل أن يلج إلى نظم القرآن . وتحليل سوره ، يتناول قصيدة لامرئ القيس وأخرى للبحترى ليرسم طريقته فى النقد وتطبيق منهجه .

واهتم بتحليل القصيدتين لأن الشعر أبلغ ما قال العرب « إذا صادف شرط الفصاحة وأبدع إذا تضمن أسباب البلاغة » . ثم اختار امرأ القيس لأن « أبلغ الشعراء فى اعتقادهم شيخهم امرؤ القيس وأحسن ما قال معلقته » فيتناولها جملة وتفصيلا للتعرف على فنون التعبير والتصرف فى القول فيها ثم ينتهى إلى نتيجة هامة هى أن الشعر مهما بلغت درجته . وعلت مكانة صاحبه واقتداره لا يصل إلى درجة الإعجاز . بل إن بين الشعراء من يلحق به فى فنه أو يسبقه أحياناً ، ذلك أن المورد الذى يرده الشعراء واحد مباح للجميع . وللمجتهد الحاذق فيه مجال التجويد والإبداع .

وسنخلص هنا إلى بعض آرائه النقدية التى عرضها أثناء تحليله للقصيدة .

(١) يرجع هنا مثلا فى كتاب متأخر مثل كتاب البديع لأسامة بن منقذ .

(٢) إعجاز القرآن ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ ط خفاجى سنة ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م .

وأول ما فعل – تطبيقاً لمنهجه – تناول القصيدة جملة ، لا أبياتاً متفرقة مفردة . وهو عين ما اتبعه مع قصيدة البحترى :

أهلاً بذَلِكمْ الخيَالِ المقْبِلِ فعَل الَّذى نَهْواهُ أم يفْعَلِ

وينتقل فى كلتا القصيدتين من المطلع حتى النهاية ، مختلفاً بين أغراضهما ، منبهاً إلى وجوه الجمال ومواطن الضعف والخلل ، معللا ، مستعيناً بآراء بعض العلماء فى الشعر ، والنقد ، متعرضاً لتلك الآراء أحياناً بالقبول أو الرفض .

وجدير بالذكر هنا أن ننوه إلى أثر دراسات نقاد القرن الرابع ، وبخاصة أمثال الآمدى والقاضى الجرجانى فى آراء الباقلانى هنا ، وبخاصة ميله إلى طريقة العرب فى الشعر ، وتفضيله للبحترى ونفوره من مذهب البديع ، ومذهب أبى تمام فيه .

وفى تحليل الباقلانى لقصيدة امرئ القيس يوازن بين ما جاء من فنون التعبير ، والتصرف فى القول ، ونظم الكلام فيها وما جاء شبيهاً أو مقارباً لها فى القرآن ، منبهاً إلى تفوق القرآن دائماً ومن أهم ما واجهه هنا الانتقال من غرض إلى آخر ، والتصرف فى ذلك الانتقال ، ليبين روعة القرآن فيه وتهافت امرئ القيس ، والبحترى ، واختلال نظمهما .

وكثيراً ما تدخل النقد الشخصى فى رأى الباقلانى فى تحليل معلقة امرئ القيس ، وإن خالف ذلك الرأى آراء جماعة النقاد بل مقتضى الفهم السليم ، وربما كان تشدده فى نكيره على امرئ القيس يمت بسبب أو آخر إلى إثبات الإعجاز على أنقاض ما يهدم من بليغ الشعر . انظر إليه كيف يخطىء الشاعر فى قوله :

« إذا قامتا تضوَّعَ المِسْكُ مِنْهُما »

يقول « فوجه التكلف فيه قوله — إذا قامتا تضوع المسك منهما — ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيباً على كل حال ، فأما فى حال القيام فقط فذلك تقصير » .

وهذا تحامل ظاهر من أبى بكر على الشاعر ، وعلى المعنى . إذ لا شك أن فى هذا التعبير لمسة فنية دقيقة ترتكز على كلمة — قامتا — لأنها مبعث الحركة والحياة فى الصورة كلها ، ولا يخفى ما فى القيام من نشر للعطر ، فيفوح ويعبق الجو بأريجه ، لما تبعثه الحركة من تردد فى الهواء فيحمل العطر إلى الأنوف ، ولا يتسنى ذلك فى القعود والسكون .

ومع هذا فإنا لا ننكر بعض ما نبه إليه الباقلانى من هنات فى القصيدة ، بل ونأخذ برأيه فيها ونقدر له عمقه وحسن استنباطه ، وإدراكه لمواطن الخلل التى قد لا تخفى على بصائر النقاد .

وفى تحليله لقصيدة البحترى بعض الطرائف الفنية فى النقد نلخصها فى النقاط التالية :

أولا : الرؤيا الشعرية[1] ، فقد أشار إلى اختلالها عند البحترى فى تشبيهه الخيال بالبرق فقال : « إنه جعل الخيال كالبرق لإشراقه فى مسراه » والخيال لا يشبه عنده بالبرق لأن البرق سريع خاطف والخيال يسرى مسرى النسيم ، ثم يرى أن فى تمثيله هذا غلواً فى الصنعة . وأن سبب اختلال الصورة عدم الدقة فى مراعاة النسبة فى الصفة بين المشبه والمشبه به ، وهذا أدى بدوره إلى فقدان الإحساس بالجمال فى النفس للبعد وعدم التوافق أو بعد الصورة الربطية (فى المشبه به) عن الصورة الأصلية (فى الخيال) .

---

(١) وهو لم يعبر بطبيعة الحال هذا التعبير ، إنما هو تعبير حديث لما قصد إليه .

الباقلانى » أن هذا التشبيه غير واقع[١] .

ثانياً : الحشو وهو زيادة اللفظ على المعنى المطلوب وهو عيب فى النظم .

ثالثاً : الابتذال فى الصورة البيانية (التشبيه أو الاستعارة أو الكناية) وبراه فى القرب ، وكثرة التردد على الألسنة .

رابعاً : الرونق اللفظى إذ يرى فى بعض أبيات البحترى رونقاً وطلاوة ، ويرى فى الأخرى قلة ماء ورونق (وهذا التعبير شائع فى عصره ، وكان يقصد به إلى السهولة والسلاسة مع جمال المعنى وحسن وقعه) .

خامساً : الاختلال فى المعنى ، ومن هذا قوله فى نقد أحد الأبيات « وإنما جرى ذكر العذال على وجه لا يتصل هذا البيت به ويلائمه ، ثم الذى ذكره من الانتظار وأن كان مليحاً فى اللفظ فهو فى المعنى متكلف لأن الواقف فى الدار لا ينتظر أمراً وإنما يقف تحسراً وتذللا وتحيراً » .

سادساً : التضمين وهو عيب معروف عند نقاد العرب .

سابعاً : مخالفة بناء القصيدة العربية القديمة .

ثامناً : التعقيد ، وعدم السلاسة فى رصف الألفاظ وسبكها ، وهو عيب فى الصياغة ، والنظم[٢] .

تاسعاً : الاستهلال ، وصلته بالفصل والوصل[٣] .

عاشراً : الاشتراك فى المعانى بينه وبين غيره من الشعراء مع تفاوت فى الحسن . يقول فى وصف البحترى للفرس « واعلم أنا تركنا بقية الكلام فى وصف

(١) إعجاز القرآن - ١٨٢

(٢) يرى أن استعمال البحترى لكلمة عقد فى البيت :

دانى الصلوع يشد عقد حزامه   يوم اللقاء على معم مخول

معقداً غير مستحسن من شاعر مثله يجود فى صنعه ويتأنق فى تخيره (ص ١٨١ إعجاز القرآن) .

(٣) ص ١٨٣ نفس المصدر .

الفرس لأنه ذكر عشرين بيتاً فى ذلك ، والذى ذكرناه فى هذا المعنى يدل على ما بعده ، ولا يعدو ما تركناه أن يكون متوسطاً إلى حد لا يفوت طريقة الشعراء ، ولو تتبعت أقاويل الشعراء فى وصف الخيل ، علمت أنه وإن جمع فأوعى وحشر فنادى فبينهم من سبقه فى ميدانه ، وبينهم من ساواه شأوه ، ومنهم من داناه ، فالقيل واحد ، والنسيج متشاكل[1] .

حادى عشر : بناء العبارة وتأليفها ، واختلافها بين النظم السوى والمضطرب ، يقول فى نقد قول البحترى :

والجودُ يعذِلُهُ عليهِ حاتِمٌ سرفاً ولا جودٌ لمنْ لاَ يُعْذَلُ

والبيت وإن كان معناه مكرراً فلفظه مضطرب بالتأخير والتقديم ، يشبه ألفاظ المبتدئين[2] .

وهكذا لا نعدو الحقيقة حين نقرر أن الباقلانى متأثر هنا بآراء معاصريه أو سابقيه من نقاد الشعر كالآمدى ، والقاضى الجرجانى ، بل ربما قرأ كتاب الآمدى (الموازنة) وأفاد منه فيما يتصل بالبحترى وأبى تمام ، وفى تفضيله الأول ولومه الثانى على بعض هناته .

تطبيق المنهج على نظم القرآن ، وأسلوبه :

يحلل سورة من القرآن كما حلل قصيدتى امرئ القيس والبحترى بتماميهما ، باعتبار السورة وحدة فنية موضوعية ، فيتناولها تناولا طريفاً — لعله لم يسبق إليه — فيحللها من ناحية النظم ، متعرضاً لألفاظها ، ومعانيها ، وتآلف الألفاظ والمعانى فى نظم رائع ، وصلة الفاصلة بالنظم . ويقوم بتقريب معانى السورة وشرح مواطن الجمال فيها ، ويكشف عما قد يخفى على القارئ العادى ، وبذلك يقوم بدور

(١) إعجاز القرآن ١٨٣ — ١٨٤ .
(٢) نفس المصدر ص ١٨٥ .

الوسيط بين النص وقارئه . متمشياً مع السورة من مطلعها متقلباً مع معانيها مختلفاً بين فنون التعبير فيها ، ثم يأبى أن يصدر أحكاماً ، أو أن يلقى بمقاييس جافة ، وهياكل لا حياة فيها . ولا رواء . لا تغنى فى النقد الصحيح ، كما فعل أصحاب البديع والبلاغة . فينحى مقاييسها جانباً ، ويتمشى مع منهجه السليم القريب إلى روح النقد .

تحليل سورة النمل :

يتناول السورة جملة - وقد اعتاد غيره الوقوف عند الآيات المفردة ، يفسر غريبها ، ويبين ما فيها من جمال اللفظ والمعنى فى حدود البديع ، والبلاغة ، ويرسم المنهج قبل بدء رحلته فيقول : « ثم اقصد إلى سورة تامة فتصرف فى معرفة قصصها . وراع ما فيها من براهينها وقصصها ، تأمل السورة التى يذكر فيها النمل ، وانظر فى كلمة كلمة وفصل فصل »[1] .

ويأخذ فى تحليل السورة من أولها فيقول « بدأ بذكر السورة إلى أن بين أن القرآن من عنده إلى أن قال : (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام وأنه رأى نارًا فقال : لأهله : (امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) ،وقال فى سورة طه فى هذه القصة : (لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) ثم قال : (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . فانظر إلى ما أجرى له الكلام الأول وكيف اتصل بتلك المقدمة ، وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الربوبية وما دل به عليها من قلب الفصاحة ، وجعله دليلا يدله عليه ومعجزة تهديه إليه وانظر الكلمات المفردة القائمة بنفسها فى الحسن

(١) إعجاز القرآن ص ١٥٢ .

وفيما تتضمنه من المعانى الشريفة ثم ماشفع به هذه الآية ، وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء، ثم انظر فى آية آية ، وكلمة كلمة هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الرصف ، فكل كلمة لو أفردت كانت فى الجمال غاية ، وفى الدلالة آية فكيف إذا قارنتها أخواتها وضامتها ذواتها ، تجرى فى الحسن مجراها ، وتأخذ فى معناها ، ثم من قصة إلى قصة ومن باب إلى باب من غير خلل يقع فى نظم الفصل إلى الفصل ، وحتى يصور لك الفصل وصلا ببديع التأليف ، وبليغ التنزيل » .

ويبين فضل نظم القرآن على الكلام العادى فيدعو واحداً إلى التقليد فلا يصل إلى شىء ويقر بالعجز أمام لفظ القرآن ونظمه . ويستطرد فى تحليل السورة فيقول « متى تهيأ للآدمى أن يقول فى وصف كتاب سليمان — عليه السلام — بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية : (أَلاَّ تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ) والخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه من التدبير واشتغلت به من المشورة ومن تعظيمها أمر المستشار ، ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها بتلك الألفاظ البديعة والكلمات العجيبة البليغة ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها : (يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ) وذكر قولهم : (قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ) لا تجد فى صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به ، وقوله : (وَالأَمْرُ إِلَيْكِ) تعلم براعته بنفسه ، وعجيب معناه وموضع إتقانه فى هذا الكلام ، وتمكن الفاصلة ، وملاءمتها لما قبلها ،وذلك قوله : (فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ) ثم إلى هذا الاختصار ، وإلى البيان مع الإعجاز ، فإن الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والإيجاز ، وهذا مما يزيده الاختصار بسطاً لتمكنه ووقوعه موقعه... ثم فكر بعد ذلك فى آية آية أو كلمة كلمة من قوله :

(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) هذه الكلمات الثلاث ، كل واحدة منها كالنجم فى علوه ونوره ، وكالياقوت يتلألأ بين شذوره ، ثم تأمل تمكن الفاصلة ، وهى الكلمة الثالثة وحسن موقعها وعجيب حكمها ، وبارع معناها ... وإن شرحت لك ما فى كل آية طال عليك الأمر ، ولكنى قد بينت بما فسرت ، وقررت بما فصلت الوجه الذى سلكت والنحو الذى قصدت ، والغرض الذى إليه رميت والسمت الذى إليه دعوت ، ثم فكر بعد ذلك فى شىء أدلك عليه ، وهو تناول هذا النظم فى الإعجاز فى مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة » .

وعلى هذا المثال يجرى تحليله لسورة جم غافر ، ونحس فيه نفس البراعة ، والروعة فى التناول والجدة فى التحليل ، ومحاولة إبراز المحاسن قبل الحكم ، والتدرج من أغراضها ، والتنقل من معنى إلى معنى ، ومن فصل إلى فصل ، مع بيان دقة الربط بين المعانى والألفاظ ، ثم نراه يجهد نفسه لكشف ما يربط بين ما يبدو منفصلا فى ظاهره من الآيات عن سمت السورة ، ولا يزال يكشف عن أسرار نظم القرآن حتى تحس وكأنك أشربت السورة ومحاسنها فى قلبك .

ونخرج من تحليل السورة بنتيجتين أولاهما أنه لا يصح الاعتماد على مجرد النظرة الفردية فى آية آية أو كلمة كلمة دون معرفة الموقع لتلك الآيات والكلمات فى السور وفى المعنى العام الذى يسلكها ، وثانيهما رسم منهج فى النقد ، يعتمد على التحليل والفهم للنص ، مع تطبيق ما سبق أن ساقه الباقلانى من آراء فى نقد البيان .

ويعتمد ذلك المنهج على ضوء ما رأيناه فى تحليل السورتين على :

١ — تماسك السورة فى المعنى والموضوع ، وفى اللفظ ، والنظم .

٢ — سهولة الانتقال من معنى إلى معنى ، ومن قصة إلى أخرى ، وروعة الخروج ، مع دقة الفصل والوصل .

٣ — تساوى السور على اختلاف موضوعاتها فى النظم والروعة الفنية ،

ولكنه مع ذلك يعترف بتفاوت بعضها عن بعض فى ظهور الإعجاز ووضوحه ، يقول « وإن كنا نعتقد أن الإعجاز فى بعض القرآن أظهر وفى بعض أدق » .

٤ — الدقة فى التعبير عن المعانى والملاءمة بينها وبين فنون القول أو فنون التعبير الأخرى كالاستعارة والتشبيه والإيجاز . . . وغيرها .

٥ — التآلف بين الألفاظ ، وانسجامها بحيث لا تحس نشوزاً ولا إخلالا ، وأنه إذا تغير وضع لفظ منها بالتقديم أو التأخير ، أو بتغييره بآخر ، لم يتم التوافق وظهر النقص والتغيير واضحين — وهذا راجع كله إلى النظم .

٦ — دقة الاختيار للألفاظ المعبرة فى مواضعها بحيث تحمل (شحنة) كاملة من المعانى تنطلق بمجرد نطقها ، وتكون هذه الخاصية أوفى بالغرض دون غيرها من الألفاظ. ومثال ذلك كلمة (لِيَأْخُذُوهُ) فى قوله تعالى : (وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِم لِيَأْخُذُوهُ) .

٧ — جلال الربوبية وتجليها فى بيان القرآن فى لفظ رائع ، وعبارات رصينة تحس إزاءها بالهيبة مثل ما فى قوله تعالى : (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) يقول : « قف على هذه الدلالة وفكر فيها وراجع نفسك فى مراعاة معانى هذه الصفة العالية والكلمات السامية والحكم البالغة ، والمعانى الشريفة ، تعلم ورودها عن الألوهية ودلالتها على الربوبية » .

٨ — التصرف فى القول فى المناسبة الواحدة مع التساوى فى الروعة فى التعبير فى كل كما جاء بقصة موسى بألفاظ متغيرة ومتساوية فى سور كثيرة .

٩ — التصرف فى الموضوعات العقلية الجافة كالتشريع والأحكام والحجاج وأصول العقيدة بأسلوب سهل ونظم بديع ، مع اختراع بعض الألفاظ وورودها لأول مرة فيه.

١٠ – وقوع الفاصلة دائماً فى موقعها المناسب ، وتمكنها منه فتتم المعنى وتكسبه روعة .

والتأمل لتلك الأصول العشرة ، والأصول السابقة التى تعرض لها فى تحليل قصيدتى امرئ القيس ، والبحترى ، والأصول العشرة التى وضعها بنفسه والتى يتحقق بها الإعجاز عنده يجد أنها واحدة تقريباً ، وإن تداخل بعضها أحياناً ، أو انفرد بعضها وتفرع ، وهى تكون المنهج الجديد فى النقد عند أبى بكر الباقلانى .

وبقى بعد عرض المنهج ، أن نعرض لبعض آرائه فى مذاهب النقد المختلفة عند القدماء ، وفريق من معاصريه ، ونخص بالذكر مذهب البديع والبلاغة .

ثورة الباقلانى على مذهب البديع والبلاغة :

ونلاحظ هذه الثورة فى مواضع كثيرة من الكتاب ، وقد بدأ فقلل من أهمية بلاغة العبارة أو الآية ، وهى التى تقوم عليها دراسات البلاغة . وقد شكك فى مقدرتها على كشف جمال المعانى ، وروعة الإعجاز وأسرار النظم ، وقلل من شأن ما ابتدعوا من مقاييس فى أبواب البديع وفنون البلاغة التى راجت فى عصره للحكم على الجمال الفنى فى العبارة . ورفض كل رأى بتحكيم مثل تلك المقاييس القاصرة فى رأيه فى إعجاز القرآن ، أو الحكم على جمال أسلوبه وبديع نظمه . وكان طبيعياً أن يتعرض لآراء العلماء السابقين ويناقشها ، وعلى رأس هؤلاء الرمانى . ونذكر منهجه فى بناء الإعجاز على أصل بلاغى ، ونذكر أقسامه العشرة للبلاغة ، وها هو الباقلانى ينقل تلك الأقسام[1] ويعلن عدم لياقتها ، وقصورها فى تحقيق الإعجاز . يقول « قد حكينا أن من الناس من يريد أن يأخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة التى ذكرنا أنها تسمى البديع فى أول الكتاب مما مضت أمثلته فى الشعر ، ومن الناس من زعم أنه يأخذ ذلك من

(١) راجع كتاب إعجاز القرآن للباقلانى ٢٠٢ .

الوجوه التى عددناها فى هذا الفصل ، واعلم أن الذى بيناه قبل هذا وذهبنا إليه هو السديد وهو أن هذه الأمور تنقسم ، فمنها ما يمكن الوقوع والتعمل له ، ويدرك بالتعلم ، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به ، وأما مالا سبيل إليه بالتعلم والتعمل من البلاغات فذلك هو الذى يدل على إعجازه»[١] .

وينكر مذهب الصنعة والتصنع ، ويأبى لمن يتبع السابقين فيما عمدوا إليه من دراسة البديع قصد معرفة إعجاز القرآن « وكذلك كثير من وجوه البلاغة قد بينا أن تعلمها يمكن ، وليس تقع البلاغة بوجه واحد دون غيره فإن كان إنما يعنى هذا القائل أنه إذا أتى فى كل معنى يتفق فى كلامه بالطبقة العالية ، ثم كان ما يتصل به كلامه بعضه ببعض وينتهى منه إلى متصرفاته على أتم البلاغة وأبدع البراعة فهذا مما لا نأباه بل نقول به ، وإنما ننكر أن يقول قائل أن بعض الوجوه بانفرادها قد حصل فيها الإعجاز من غير أن يقارنه مما يتصل به من الكلام ويفضى إليه مثل ما يقال أن ما أقسم به وحده معجز وأن التشبيه معجز وأن التجنيس معجز والمطابقة بنفسها معجزة[٢] . . وأما الآية التى فيها ذكر التشبيه فإن ادعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتأليفها فإنى لا أدفع ذلك ولا أصححه ، ولكن لا أدعى إعجازها لموضع التشبيه ، وصاحب المقالة التى حكيناها[٣] أضاف ذلك إلى موضع التشبيه وما قرن به من الوجوه ومن تلك الوجوه ما قد بينا أن الإعجاز يتعلق به كالبيان[٤] وذلك يختص بجنس من المبين دون جنس » .

ولعله يشير فى هذه العبارة إلى فنون البلاغة عند الرمانى وغيره وإلى العلة الجمالية فى بلاغة القرآن ونظمه ، ويرى أن التشبيه — أو غيره — لا يكفى وحده فى الآية ليعلق عليه إعجازها ، وذلك شأن أقسام البلاغة العشرة الأخرى . يقول

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ٢٠٧ .
(٢) إعجاز القرآن ٢٠٨ .
(٣) لعله يقصد الرمانى .
(٤) ربما قصد باب حسن البيان فى كتاب « نكت الإعجاز » .

« وما حكيناه عن صاحب الكلام من المبالغة فى اللفظة فليس ذلك بطريق الإعجاز لأن الوجوه التى ذكرها قد تتفق فى كلام غيره ، وليس ذلك بمعجزة بل قد يصح أن يقع فى المبالغة فى المعنى والصنعة وجوه من اللفظ تثمر الإعجاز . وتضمين المعانى أيضاً ، قد يتعلق به الإعجاز ، وليس ذلك بمعجز ، وأما الفواصل فقد بينا أنه يصح أن يتعلق بها الإعجاز ، وكذلك بينا فى المقاطع ، والمطالع نحو هذا ، وبينا فى تلاؤم الكلام ما سبق من صحة الكلام به ، والتصرف فى الاستعارة البديعة ، يصح أن يتعلق به الإعجاز ، كما يصح مثل ذلك فى حقائق الكلام ، لأن البلاغة فى كل واحد من البابين تجرى مجرى واحداً ، وتأخذ مأخذاً مفرداً »[1] .

وقال فى موضع آخر : « وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الوجوه التى نقلناها ، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه ، وليس كذلك عندنا لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدرج والتعود والتصنع لها كالشعر الذى إذا عرف الإنسان طريقه صح منه التعمل له وأمكنه نظمه ، والوجوه التى نقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه بحال . ويبين ما قلنا أن كثيراً من المحدثين قد تصنع لأبواب الصنعة حتى حشى جميع شعره منها واجتهد أن لا يفوته بيت إلا وهو يملؤه من الصنعة كما صنع أبو تمام فى لاميته[2] ، ومن الأدباء من عاب عليه هذه الأبيات ونحوها على ما تكلف فيها من البديع وتعمل من الصنعة فقال قد أذهب ماء هذا الشعر ورونقه وفائدته اشتغالا بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه . وقد تعصب عليه حمد بن عبيد الله بن عمار وأسرف حتى تجاوز الغض من محاسنه . ولما قد أولع به من الصنعة ربما قد غطى على بصره حتى يبدع فى القبيح وهو يريد أن يبدع فى الحسن » ، ثم يرى أن أبا تمام قد أوغل فى

(١) إعجاز القرآن / ٢١٣ — ٢١٤ .
(٢) نفس المصدر / ٩٤ — ٩٥ .

الصنعة والبديع حتى استثقل نظمه واستوخم رصفه ، وكان التكلُّف بارداً والتصرف جامداً »[١] .

وبينما هو لا يقبل هذا التصنيع ومذهب البديع فى شعر أبى تمام ، يعجب بطريقة البحترى — وهى طريقة العرب — فى النظم لأنه لم يكثر فى البديع إكثار أبى تمام ، فاحتفظ لشعره بالجمال والرونق .

دور اللفظ فى التعبير فى منهج الباقلانى :

رأى الباقلانى رأياً فى دور اللفظ فى التعبير ، ولخصه فى كتابه . وهو يعتمد على اعتبار اللفظ جزءاً من النظم يوجهه المعنى ، وأداةً للتعبير ، لا ينظر إليه نظرة جزئية على ضوء البديع فيحكم عليه بالفصاحة ، أو الابتذال ، أو بغير ذلك من الأحكام .

وهو يقترب فى رأيه هذا من آراء النقاد المحدثين فى اللفظ . فلا يهمه من اللفظ غير « دقة أداء المعانى » ولا يهتم بعد ذلك بالرونق والمظهر ، مهما تغير أو تلون فى صيغ وأشكال مختلفة ، يقول :

إذا كان الكلام يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة فى النفوس التى يمكن التوصل إليها بأنفسها وهى محتاجة إلى ما يعبر عنها فما كان أقرب فى تصويرها وأظهر فى كشفها فيفهم الغائب منها ، وكان مع ذلك أحكم فى الإبانة عن المراد وأشد تحقيقاً فى الإيضاح عن الطلب وأعجب فى وصفه ، وأرشق فى تصرفه . وأبرع فى نظمه كان أولى وأحق بأن يكون شريفاً . . .

وقد أجمعوا أن من أحذق المصورين من صور لك الباكى المتضاحك ، والباكى الحزين ، والضاحك المتباكى ، والضاحك المستبشر ، كما أنه يحتاج إلى لطف يد فى تصوير هذه الأمثلة فكذلك يحتاج إلى لطف اللسان والطبع فى تصوير ما فى النفس للغير » .

(١) إعجاز القرآن ص ٩٦ .

نظرية الأدب عنده :

يبسط لك نظرية الأدب ، ودوره فى الأداء الفنى ، وقضية اللفظ والمعنى ودورها فى الكشف عن الخلجات النفسية ، ثم لا يتجاهل أثر الشخصية المبدعة فى التعبير ، وما يجب أن يتوفر لها من شروط الطبع ولطف اللسان ، ودقة التصوير لما فى النفس للغير ، ولا يتجاهل كذلك ما للفظ من أثر فى الوجدان والمخيلة ، إذا ما صدر عن وجدان منفعل ، وما يحدثه عندئذ من ترابط بين العواطف والأحاسيس فتتدفق المعانى بين هذه الأسباب التى تربط الشخصيتين المبدعة والقابلة . ثم انظر إليه كيف يجعل مقاييس الجمال فى النص الأدبى التعبير ، والقدرة على الأداء ، وكشف تلك الأحاسيس الدقيقة ، والعواطف المتشابكة ، وتتلون هذه القدرة وتتشكل فى صور مختلفة من الفن القولى ، مما سبق الكلام فيه فى منهج الباقلانى .

وها هو هنا يطبق مارآه فى تحليله للقصيدتين ، وللسورتين .

الأثر النفسى للأدب :

ولا نعيد القول فنكرره هنا بأن الباقلانى استوحى منهجه من دراسته لبيان القرآن وتعمقه ، وهو لا يبرح يجعل القرآن المقياس ، أو المثال فى الأثر النفسى للأدب . يقول : « فالقرآن أعلى منازل البيان ، وأعلى مراتبه ، لما جمع من وجوه الحسن وأسبابه ، وطرقه وأبوابه من تغيّر النظم وسلامته ، وحسنه وبهجته ، وحسن موقعه فى السمع ، وسهولته على اللسان ووقوعه فى النفس موقع القبول ، وتصوره تصور المشاهد ، وتشكله على جهة حتى يحل محل البرهان ، ودلالته على التأليف مما لاينحصر حسناً وبهجة ، وسناء ورقة ، وإذا علا الكلام فى نفسه كان له من الوقع فى القلوب والتمكن من النفوس ما يذهل ويبهج ، ويقلق

ويؤنس ، ويضحك ويبكى ، ويحزن ويفرح ، ويسكن ويزعج ، ويشجى ويطرب ، ويهز الأعطاف ويستميل نحوه الأسماع ، ويورث الأريحية والعزة ، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجوداً ، ويرى السامع من وراء رأيه مرمى بعيداً ، وله مسالك فى النفوس ، ومداخل إلى القلوب دقيقة ، وبحسب ما يترتب فى نظمه ، ويتنزل فى موقعه ، ويجرى على سمت مطلعه ، ومقطعه ، ويكون عجيب تأثيراته ، وبديع مقتضياته ، وكذلك على حسب مصادره يتصور وجود موارده »[1] .

تكلم عن البيان عامة ، عن موضوعه ، واعتماده على النظم ، وملاءمته المعنى ، ثم انتقل إلى أثر النظم فى النفوس ، وهو غاية البيان وهدفه ، ثم انتهى إلى الركن الثالث من أركان الأدب ، وهو ما سبق الكلام فيه ، أعنى الشخصية المبدعة ، وأثرها فى إنشاء الأدب ، ويفصل فى وجوب حدوث انفعال حقيقى عند الشاعر أو الأديب المنشىء ، ليتسنى لتعبيره الصدق ، وحرارة العاطفة عن حقيقة تجيش فى صدره أى أن يكون الفنان أو الأديب ، أو الشاعر منفعلا بما يقص ، صادق الرواية عن إحساس صحيح فى نفسه فالغزل إذا صدر عن محب كان أرق وأحسن ، وكذلك الشجاعة من الشجاع أوقع . يقول : « وإذا صدر عن متغزل وحصل من متصنع نادى على نفسه بالمداجاة وأخبر عن خبيئته ، فى المراءاة ، وكذلك قد يصدر الشعر فى وصف الحرب عن الشجاع فيعلم وجه صدوره فيدل على كنهه ، وحقيقته ، وقد يصدر عن المتشبه ويخرج عن المتصنع فيعرف من حاله ما ظن أنه يخفيه ، ويظهر من حاله خلاف ما يبديه ، فأنت تجد لقول المتنبي :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والحرب والطعن والقرطاس والقلم

(١) إعجاز القرآن ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

من الوقع فى القلب ما تعلم أنه من أهل الشجاعة ، مالا تجده للبحترى فى قوله :

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفى بعقرقس والمشرفية شهـــدى »

ثم يكرر قوله « وإنما ذكرت لك هذه الأمور لتعلم أن الشىء فى معدنه أعز ، وفى مظانه أحسن وإلى أصله أنزع ، وبأسبابه ألبق ، ويدل ما صدر منه على ما نتج عنه » .

ولا ينسى أثر الأدب فى النفس القابلة ، فيشير إلى ما يحدثه النص من إثارة للعواطف المختلفة من بهجة وقلق وأنس وطمع ويأس . . . إلخ ما تكلم عنه فى عبارته السابقة .

ويخلص إلى نظرية النقد ودوره ، كما بين نظرية الأدب فيقول « ومعرفة الكلام أشد من المعرفة بجميع ما وصفت لك وأغمض وأدق ، وألطف ، وتصوير ما فى النفس ، وتشكيل ما فى القلب حتى تعلمه وكأنك مشاهده ، وإن كان قد يقع بالإشارة ، ويحصل بالدلالة والإمارة ، كما يحصل بالنطق الصريح ، والقول الفصيح ، فللإشارات أيضاً مراتب ، وللسان منازل ، ورب وصف يصور لك الموصوف كما هو لا خلاف له ، ورب وصف يربو عليه ويتعداه ، ورب وصف يقصر عنه ، ثم إذا صدق الوصف انقسم إلى صحة وإتقان ، وحسن وإحسان ، وإلى إجمال وشرح ، وإلى استيفاء وتقريب ، وإلى غير ذلك من الوجوه ، وكل مذهب وطريق له باب وسبيل » .

وضع فى تلك العبارات ملخصاً لمهمة الناقد ، ووضع المعالم فى طريقه ليستدل على هدى وبينة .

وبعد فقد تعرض الباقلانى لكل ما يمكن أن يتعرض له ناقد حديث حين يطالب بنقد نص وبيان رأيه فيه ، نقد النص نقداً موضوعيًّا على أساس فهم سليم له ، ثم التأثر بما يوحيه من المعانى والكشف عنها ، وبيان الرأى فيها بالاستعانة

بدراسات اللغة ، ومقاييس الأسلوب الجميل ، ثم الأثر النفسى الذى يكمن وراء النص ، أو الانفعال الذى أثار قائله ، وقدرته على التعبير ، وأداء ذلك المعنى ، ثم الأثر النفسى للنص فى السامعين أو القارئين . . . . إلخ ما تعرضنا له من طرائف فى الكتاب ، وما سبقه من آراء فى كتبه الأخرى .

ولعلنا نرى بعد هذا مدى تفاعل الآراء السابقة — فى دراسات القرآن — فيما تعرضنا له من الكتب فى هذه الدراسة ، ونلاحظ أن الباقلانى قد مخض تلك الدراسات القرآنية ، واللغوية والأدبية ، والبلاغية ، وكان زبدة هذا كله ما رأيناه من أثر القرآن فى تطور المنهج النقدى عنده .

وبهذا تنتهى دراسات القرآن فى القرن الرابع .